

الفصل الخامس

بہزاد ومعاصروہ -

مدرسة بخاری

obeikandi.com

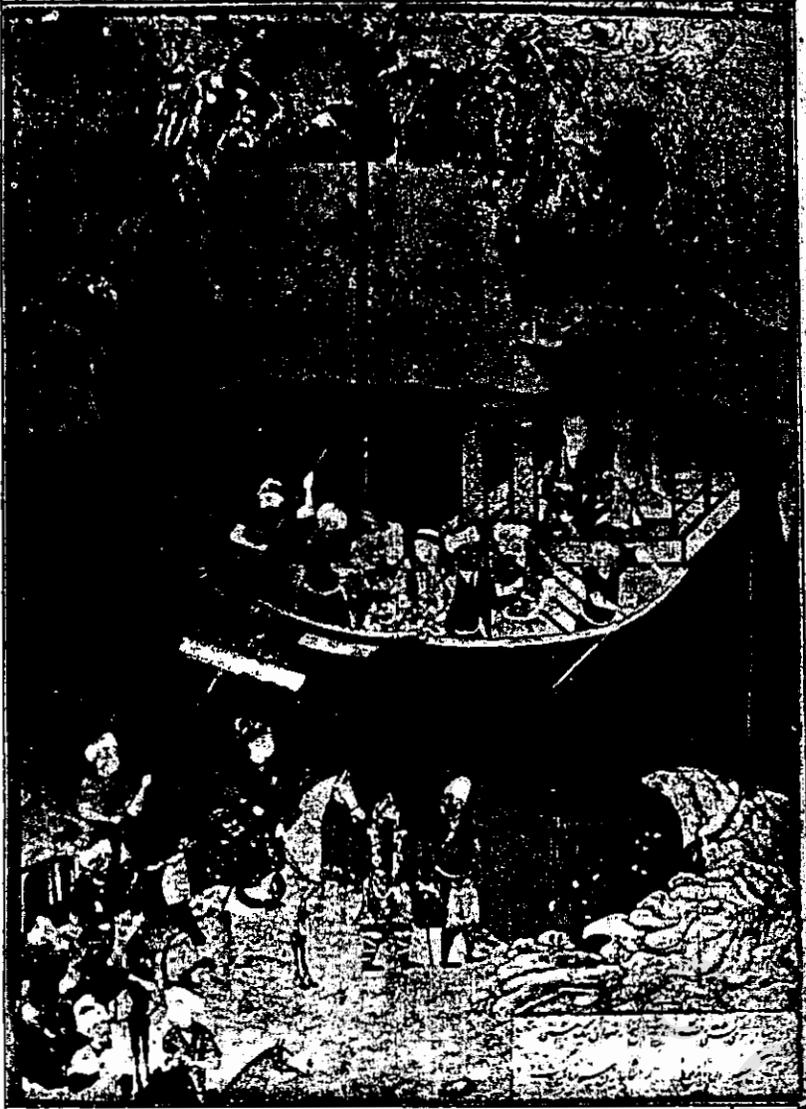
ولد بهزاد فى هراة حوالى سنة ٨٥٤هـ (١٤٥٠)، ودرس النفاش والتصوير على بير سيد أحمدا التبريزى، ويقول آخرون على ميرك نقاش من هراة، ومهما يكن من شىء فإنه تلقى تعليما حسنا بفضل رعاية السلطان حسين بيقرا ووزيره مير على شير.

وظل بهزاد فى هراة حتى أقل نجم التيموريين وزالت دولتهم على يد محمد خان شيبانى، الذى استولى على عاصمتهم سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧)، ولم يترك بهزاد مقره فى هراة إلا بعد أن استولى عليها الشاه إسماعيل الصفوى سنة ٩١٦هـ (١٥١٠)؛ فانتقل معه إلى تبريز، وحظى عنده وعند خليفته الشاه طهماسب بمكانة قل أن يصل إليها فنان قط.

ويروون أنه لما كانت الحرب بين الشاه إسماعيل وبين الترك سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤) بلغ من خوفه على بهزاد أن أخفاه هو والخطاط المشهور شاه محمود نيشابورى فى قبو، ولما انتهت المعركة كان أول همه الاطمئنان على سلامتتهما.

وفى سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٢) عين الشاه إسماعيل بهزاد مديراً لمكتبته الملكية، ورئيساً لكل أمناء المكتبة، والخطاطين، والمصورين، والمذهبيين. وقد حفظ لنا المؤرخ خواندمير، براءة تعيينه، ونشرت هذه الوثيقة الكبرى مع ترجمة فرنسية فى الجزء الرابع والعشرين من مجلة العالم الإسلامى^(١) Revue du Monde Musulman وتزجمها أيضا إلى الإنجليزية الأستاذ أرنولد فى آجر كتابه عن التصوير فى الإسلام.

(١) تحت عنوان Deux documents inédits relatifs a Behzad بقلم Mirza Mohammed Qaz-



(شكل ٢٦)

اختطاف فتاة في قارب

مدرسة هراة في أواخر القرن التاسع الهجري

مجموعة ساكسيان

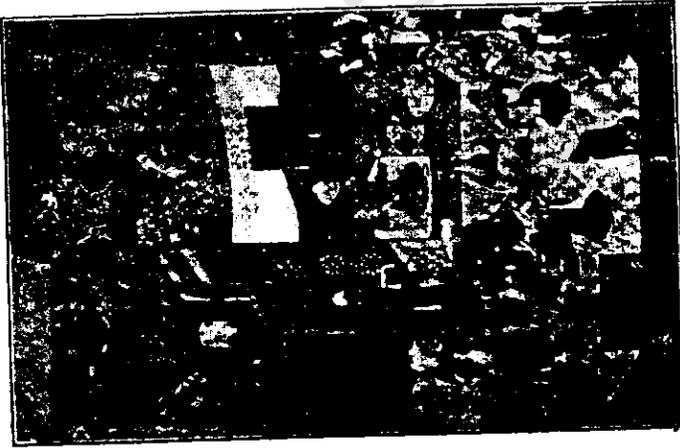
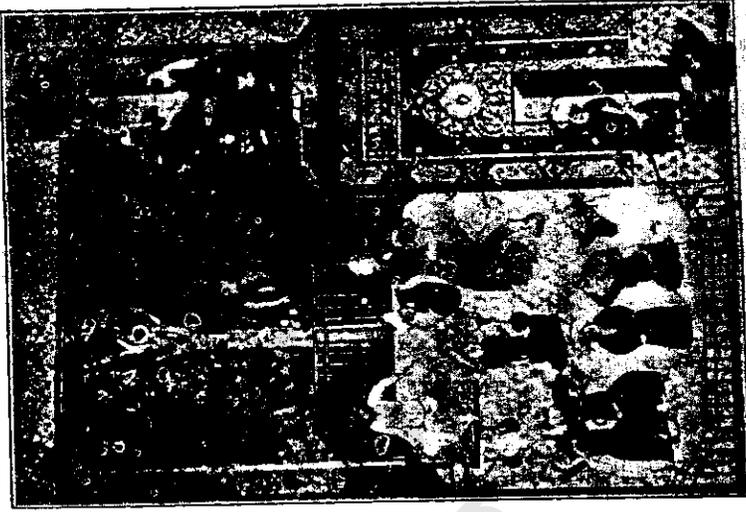


(شكل ٢٧)

جماعة من الصوفية في حديقة

للمصور قاسم على سنة ١٨٩٠ هـ

بالمكتبة البودليه في أكسفورد



(شكلا ٢٨ و ٢٩)

السلطان حسين ميرزا في وليمة - لهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ

وقد أحرز بهزاد شهرة واسعة فاقت شهرة من سبقه من المصورين، ومن عاصره أو خلفه منهم. وتسبق قياصرة الهند من المغول إلى جمع صورته والإعجاب بها؛ ولكن هذه الخطوة جعلت المصورين يقلدونه، وحملت الخطاطين والهواة على أن ينسبوا إليه من الصور ما ليس من عمله، ويقلدون إمضاءه جرياً وراء ربح مادي، أو فخر أدبي؛ فأكثر الصور التي قد تلقى شعاعاً من الضوء على أعمال هذا الفنان العظيم يشك مؤرخو الفن الإسلامي في صحة نسبتها إليه.

على أن بهزاد كان من أوائل الفنانيين الفرس الذين مهروا بإمضائهم ما رقموه من صور؛ والمعروف أن الإمضاءات في الفنون الشرقية لم تبلغ من الأهمية ما بلغت في فنون الغرب، حيث نمت شخصية الفنان، وفطن إلى حقه في الافتخار بما صنعه يده^(١).

هذا وقد عنى الهواة ومؤرخو الفن بالبحث عما يصح نسبته إلى بهزاد من الصور الكثيرة التي تحمل إمضاءه. وقد كان معرض الفن الفارسي في لندن سنة ١٩٣١ أكبر عون لهم على ذلك، وإن كان لا يزال بينهم وبين الوصول إلى نتيجة حاسمة مرحلة واسعة وشوط بعيد.

وما يدل على عظم المرتبة التي وصل إليها بهزاد أنه لم يجعل للخطاطين أي نفوذ عليه، فلم يتركهم يحددون الفراغ الذي يتركونه له في المخطوطات، ويتحكمون في انتقاء الموضوعات التي عليه إيضاحها بالصور؛ بل أخذ يختار بنفسه ما يروق له، ولم يكن يترك للخطاطين في الصحيفة

(١) راجع Kuhnel : Miniaturmalerei ص ١٦ و Islam Arnold : Painting in ص ٧١.

المصورة إلا سطوراً قليلة إن لم يستقل بها كلها، أو يذهب إلى أبعد من هذا
فيأخذ لصورته صحيفتين متجاورتين^(١).

وفي مكتبة يلدز باستانبول صورة لبهزاد تمثله شخصاً طيباً يغلبه الحياء،
ويرجع عهد هذه الصورة إلى الأسرة الصفوية، وقد نشرها الأستاذ ساكسيان
في كتابه عن الصور المصغرة الفارسية^(٢).

وإذا نحن عرجنا الآن على استعراض الصور التي تنسب إلى بهزاد فإننا
نفعل ذلك بشيء من التحفظ، فضلاً عن أننا لن نذكر منها إلا ما يكاد يتفق
العلماء على صحة نسبته إليه.

فمن آثار القسم الأول من حياته، أى من صناعته فى هراة، صورتان
للسلطان حسين بيقرى ولمحمد خان شيبانى إحداهما غير تامة، ولهاتين
الصورتين قيمة كبيرة؛ فهما أول ما نراه فى الفن الفارسى من صور شخصية
حقيقية يدرس فيها شخص بسحته وصفاته الجسمية مما لم يكن يستطيعه فى
ذلك العصر من مصورى آسيا إلا الصينيون واليابانيون^(٣).

وقد لاحظ الأستاذ الدكتور كونل Dr. Kuhnel أن هناك علامة تميز أكثر
الصور التي رسمها بهزاد وهي وجود رجل ذى سحنة بربرية ولعل المصور
الكبير كان يرى فى ذلك خير وسيلة لإظهار الفرق بين تلك السحنة البربرية
وبين سحنة الرجال الآخرين من الجنس الأبيض. وقد لوحظ أيضاً أن بهزاد
كان يتجنب تصوير النساء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً^(٤).

(١) قارن Kuhnel: Miniaturmalerei ص ٧ و Kuhnel: Islamische Kleinkunst ص ٥٠
وما بعدها.

(٢) انظر Sakisian: La Miniature Persane اللوحة ٧٤ شكل ١٣٠.

(٣) انظر Sakisian: ibid ص ٦٧-٦٨.

(٤) انظر Kuhnel: Islamische Kleinkunst ص ٥٠.

ويحق لدار الكتب المصرية أن تفخر بمخطوطٍ فيها من كتاب بستان سعدى يشمل خمس صور، تكاد تكون في الوقت الحاضر أمثن أساس تستند عليه دراسة بهزاد، فإن الثقة بصحة نسبتها إليه أعظم من الثقة بنسبة أى صور أخرى إذ المخطوط غاية في الإبداع، ودقة الصناعة؛ كتبه أكبر خطاطى العصر «سلطان على الكاتب» سنة ٨٩٣هـ (١٤٨٨) للسلطان حسين يبقرا الذى نرى صورته فى صدر المخطوط^(١) ومن الطبيعى أن يوكل عمل الصور فى مثل هذه التحفة إلى بهزاد نفسه. وعلى كل حال فإن فيها أربع صور عليها إمضاء هذا الفنان ونصها: «عمل العبد بهزاد»^(٢). وتتجلى فى هذه الصور البراعة الفائقة التى امتاز بها بهزاد فى مزج الألوان ومحاكاة الطبيعة، والعناية بتمييز كل شخصية من الأخرى، والتعبير عن الحالات النفسية المختلفة. وفى الصورة التى تمثل الملك دارا مع راعى خيله^(٣)، يظهر توفيق بهزاد فى تصوير الطبيعة الريفية وتفوقه فى رسم الخيل. وفى أربع الصور الأخرى واحدة تمثل سيدنا يوسف يفر من زليخا امرأة العزيز حين شيدت فى سبيل إغوائه قصرًا فيه سبع طبقات من الأبواب، وزينت الغرفة الداخلية بـصور تمثلها بين ذراعى سيدنا يوسف زاعمة أنه حين يراها لا بد واقف فى شراكها، ولكنه فطن إلى الحيلة وصلى ففتحت الأبواب ونجا من زليخا. ونلاحظ فى رسمه ما اعتاده الفرس فى تصويرهم من تغطية وجوه الرسل وإحاطة رؤوسهم بهالة من الضوء^(٤).

(١) انظر اللوحة ٢١ شبكى ٢٨ و ٢٩.

(٢) كما أن فى أول هذا المخطوط أربع صفحات ملونة (سرلوح) زخارفها زرقاء وذهبية وفى كنان إحدى هذه الصفحات العبارة الآتية: «عمل العبد مارى المذهب». انظر G. Wiet: L'Exposition persane de 1931 ص ٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر اللوحة ٢٣ شكل ٣١.

(٤) انظر اللوحة ٢٢ شكل ٣٠ وقارن Arnold: Painting in Islam ص ١٠٥ وما بعدها.

وتمثل صورة أخرى بعض علماء الدين يتجادلون في مسجد^(١). بينما تمثل الصورة الأخيرة مناظر أخرى في مسجد^(٢).

وفي المتحف البريطاني ثلاث صور في مخطوط صغير من المنظومات «الخمس» لنظامي عليها إمضاء بهزاد، وصناعتها من الإبداع والدقة بحيث لا ترك مجالاً كبيراً للشك في صحة هذه النسبة؛ واثنتان منها تمثلان معركتين حربيتين لم يبلغ الفن الفارسي إلى تصوير مثلهما في قوة التعبير والحرية الفنية.

وهناك صورة في مخطوط من كتاب «بستان سعدى»، يمتلكه الآن المستر شيلستر بيتي، على بعضها توقيع لبهزاد. ولكننا لا نريد أن نعرض هنا لكل ما ينسب إلى هذا الفنان، فإن المجال لا يتسع لمناقشة صحة هذه النسبة أو خطتها^(٣).

وقد زعم بعض مؤرخي الفن أن بهزاد لا يستحق الشهرة التي نالها. وفي الحق أنه من الصعب أن نجد في أعماله من البراعة والمقدرة الخارقة للعادة ما يبرر كل هذه الشهرة، كما أنه من الصعب أيضاً اعتباره مبدع مدرسة أو طراز جديد بالمعنى الحديث الذي نفهمه. ولكن بهزاد مثال المصور الكامل انتهى عنده تطور التصوير الفارسي في عهد المدرستين الفارسية التتيرية ثم التيمورية وبلغ التقدم متناهياً، فاستطاع هذا الفنان بقدرته العجيبة على التأليف

(١) انظر اللوحة ٢٥ شكل ٣٣.

(٢) انظر اللوحة ٢٤ شكل ٣٢ وقارن Binyon, Wilkinson & Gray: ibid ص ٩٨-٩٩.

Wiet: L'Exposition persane de 1931 ص ٧٤ - ٧٨.

(٣) راجع المثال الذي كتبه الأستاذ اتنجهوزن R. Ettinghausen عن بهزاد في ذيل دائرة المعارف

الإسلامية، صحيفة ٤٠-٤٢ من النسخة الفرنسية. وقارن Arnold: Painting in Islam



(شكل ٣٠)

سيلنا يوسف يفر من زليخا - لبهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ



(شكل ٣١)

الراعي ودارا ملك الفرس - ليهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ



(شكل ٣٢)

مناظر في مسجد - ليهزاد

من مخطوط لبستان سعدى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ٨٩٣هـ



(شكل ٣٣)

فقهاء يتجادلون - ليهزاد

من مخطوط البستان سعلى بدار الكتب المصرية تاريخه سنة ١٨٩٣ هـ

١٠٢ = ٥٥١١
١٠٢ = ٥٥١١



(شكل ٣٤)

صورة درويش من بغداد - لبهزاد

مجموعة شبستر بيتي



(شكل ٣٥)

صورة فارسية للوحة تعزى إلى جنتيلي بليني المصور البندقى

القرن الحادى عشر الهجرى

مجموعة فيتالى ماجار



(شكل ٣٦)

مناظر في حمام - ليهزاد



(شكل ٣٧)

بناء مسجد - ليهزاد

من مخطوط للمنظومات الخمسة لنظامي - بالتحف البريطاني

التصويرى، ومزج الألوان، ومراعاة الطبيعة، وجعل أسارير الوجه لأشخاص صوره ملائمة لأعمالهم وحالاتهم النفسية، نقول استطاع بهزاد بفضل ذلك كله أن يحوز رضاء معاصريه، وأن يصل إلى شهرة لا تعادلها شهرة أى فنان آخر فى العالم الإسلامى (١).

قاسم على

وهناك فنان آخر نبغ فى هراة فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر) ظل مجهولا لمؤرخى الفن الإسلامى، يخلطون بين آثاره وآثار بهزاد حتى عرض الأستاذ ساكسيان لفحص الصور التى انتحلت على الفنان الأخير، والتوقيعات التى كانت تنسب خطأ إليه، فكشف، فى مخطوط من القصائد الخمسة لنظامى تاريخه ٨٩٩هـ (١٤٩٣) ومحفوظ الآن بالمتحف البريطانى، إمضاء المصور قاسم على فى صور من هذا المخطوط عليها إمضاء مزورة لبهزاد (٢).

وبالرغم من أن إمضاء قاسم على لا تظهر إلا فى سبع صور من المخطوط، فإن ساكسيان يعتقد بأن ستاً أخرى يمكن نسبتها إليه. ولعل أبداع صورة فى هذا المخطوط تلك التى تمثل مدرسة فى الهنوء الطلق (٣).

فالمعلم الهرم الذى يمد يده ليتناول كتابا يعرضه عليه أحمد تلاميذه، وذلك التلميذ الذى أضناه التعب أو غيره فأخذ يغط فى النوم، والآخرون

(١) يضرب الإيرانيون المثل فى النبوغ فى التصوير بماتى وبهزاد.

(٢) Sakisian : La miniature persane ص ٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر اللوحة ٢٩ شكل ٣٩.

اللذان استرسلا في حديث قد لا يكون له بموضوع الدراسة أي علاقة، وهاتان الفتاتان اللتان تستمعان في شيء من الدلال والخجل إلى حديث زميل لهما، وشجرة الساج العظيمة التي تشرف على المعلم وتلاميذه، كل هذا جميل يأخذ بمجامح القلب.

وجميلة أيضا تلك الصورة التي تمثل عدداً من النساء في بركة حمام، تطريهن عازفة على العود، وتجذب إحداهن رقيقة لها تدعوها للنزول في الماء، وترمق الجميع عين غريبة تنظر إليهن خلصة من كوتى شرفة تطل على البركة، وتزين يسار الصورة حديقة فيها شجرة سرو وشجيرات زهور^(١).

وقد وجد توقيع قاسم على في صورة من مخطوط بمكتبة البودليان باكسفورد تاريخه ٨٩٠هـ (١٤٨٥) وتمثل هذه الصورة جماعة من الصوفية يتحدثون في حديقة^(٢).

ومهما يكن من شيء فإن الصور التي عرضت في معرض الفن الفارسي بلندن سنة ١٩٣١ أبدت ما ذكره عن قاسم على المؤرخ الفارسي خواندميز^(٣)، وأظهرت براعته الفائقة في مزج الألوان ورسم الأشخاص.

ومن الذين اشتهروا من تلاميذ بهزاد المصور شيخ زاده الخراساني، ومير منصور الشيرازي، وأغا ميرك، ومظفر على^(٤)، وسيأتي الكلام على بعضهم

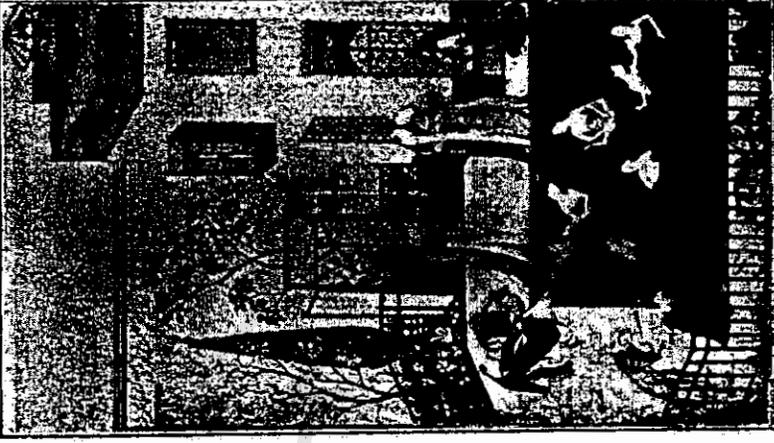
(١) انظر اللوحة ٢٩ شكل ٣٨.

(٢) انظر اللوحة ٢٠ شكل ٢٧.

(٣) راجع Arnold: Painting in Islam ص ١٣٩ - ١٤٠ و Binyon, Wilkinson & Gray: ibid

ص ٩١

(٤) راجع Arnold: ibid ص ١٤١ - ١٤٥.



(شكل ٣٨)

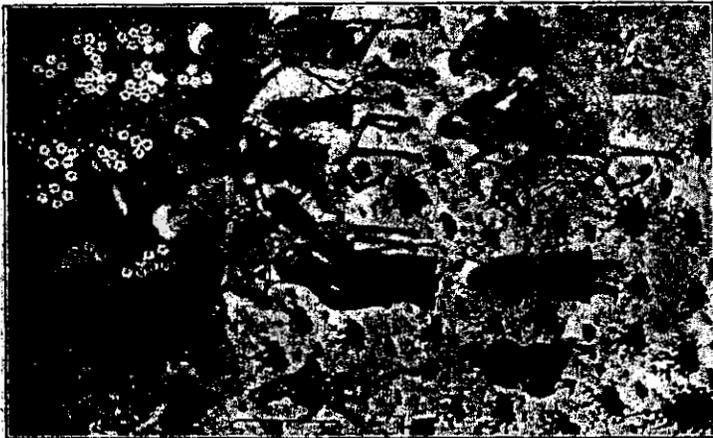
نساء في الحمام ترمقهن عين فضولي

للمصور قاسم على سنة ١٨٩٩هـ - من محفوظ المنظومات الخمسة لنظامي باسم أمير من أمراء السلطان حسين ميرزا - بالمتحف البريطاني



(شكل ٣٩)

مدرسة في الهواء الطلق



(شكلا ٤٠ و ٤١)

عجزت تطلب إلى السلطان سنجر أن ينظر في مظلمة لها

للمصور محمود الذهب - مدرسة بخارى سنة ٩٥٣هـ

من مخطوط «المخزن الأسرار» لنظامي المكتبة الأهلية بباريس

مدرسة بخارى (القرن العاشر الهجرى)

سقطت هراة سنة ٩١٣هـ (١٥٠٧) فى يد المغيرين من الأزيك وعلى رأسهم شيبانى خان، وفر حاكمها الأمير بديع الزمان إلى تبريز، وفر معه كثير من الفنانين وإن يكن عميدهم بهزاد قد ظل فى هراة. وعلى كل حال فإن نصر الشيبانيين لم يدم طويلا، فما لبث الشاه إسماعيل الصفوى أن قضى على حكمهم، وهزم أميرهم محمد خان شيبانى فى معركة مرو سنة ٩١٦هـ (١٥١٠)، وضم خراسان إلى ملكه. ولم تبق هراة حاضرة هذا الإقليم، فإن الشيبانيين أصبحوا يحكمون من سمرقند وبخارى ما بقى فى يدهم ببلاد ما وراء النهر، وولت خراسان وجهها شطر تبريز. وهاجر إلى هذه المدينة كثير من رجال الفن فى هراة، كما هاجر إلى سمرقند وبخارى كثيرون التى صورت بها فى أوائل القرن العاشر (الثلث الأول من القرن السادس عشر)، والتى يظهر على إحدى صورها اسم المصور محمد مؤمن^(١).

وفى سنة ٩٤٢هـ (١٥٣٥) أتيح للأزيك الاستيلاء مرة ثانية على هراة فتهبوا، وهاجر إلى بخارى أكثر الباقين فيها من رجال الفن، ولعل مما شجع على المهاجرة إلى بخارى ما اضطرت إليه خراسان بعد الفتح الصفوى من اعتناق المذهب الشيعى بينما كان الشيبانيون سنيين كما كان من قبلهم تيمور وخلفاؤه.

وقد كان المعروف من صور مدرسة بخارى قليل العدد، حتى كان معرض الفن الفارسى بلندن سنة ١٩٣١ فظهر بين المعروضات كثير منها، وبعضه من عمل المصور محمود مذهب الذى يعتبر رأس هذه المدرسة.

(١) راجع Sakisian: La miniature Persane ص ٨٨.

على أن أبداع ما نعرفه من عمل هذا المصور إنما هي الصورة التي نراها في مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس لمنظومة نظامي «مخزن الأسرار»، كتبه في بخارى سنة ٩٤٤هـ (١٥٣٧) الخطاط المشهور مير علي، ولكن الصورة عليها تاريخ سنة ٩٥٣هـ (١٥٤٦) وتمثل السلطان السلجوقي سنجر ومعه حاشيته وقد استوقفتهم عجوز تطلب إلى السلطان النظر في مظلمة لها^(١).

وتمتاز الصور المصنوعة في بخارى في النصف الأول من القرن العاشر (السادس عشر) بروعة ألوانها وبظهور تأثير بهزاد في صناعتها. ولا غرو فإن مدرسة بخارى ليست إلا امتداد المدرسة التيمورية. ومن أول الأمثلة على ذلك «بستان» سعدي المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، والذي كتب في بخارى سنة ٩٦٤هـ (١٥٥٥)، وزين بصور تشبه كثيراً صور بهزاد في «البستان» المحفوظ بدار الكتب المصرية^(٢).

وهناك مخطوط من ديوان جامي كان في مجموعة ديموت Demotte ويرجع إلى سنة ٩٨٣هـ (١٥٧٥) ولكنه يحوى صورة بديعة جداً تمثل لقاء رجل وامرأة، وعليها توقيع الفنان عبد الله مصور، وبها كل خصائص الصور في أواخر القرن التاسع (الخامس عشر). وفي الحق أن التصوير في بلاد ما وراء النهر لم يجد مرتعاً خصباً، ولم يزد مدة طويلة، ومع ذلك قد حفظه جموده وعدم تطوره من مثل الاضمحلال الذي سار في طريقه التصوير في العصر الصفوي منذ منتصف القرن العاشر (السادس عشر).

(١) انظر اللوحة ٣٠ شكلي ٤٠ و٤١ ولاحظ غطاء الرأس في صور مدرسة بخارى وهو مكون من قلنسوة مرتفعة ومضلعة وتحيط العمامة بجزئها الأسفل وراجع موضوع هذه الصورة (العجوز والسلطان سنجر) في كتاب L. Binyon: The Poems of Nizami

(٢) راجع Blochet: Les Enluminures لوحتي ٥٧ و٥٨.

ومهما يكن من شيء فإن التصوير فى بخارى ينتهى عصره قبيل انتهاء
القرن العاشر (السادس عشر) وتصبح بلاد ما وراء النهر غريبة عن التصوير
الفارسى غرابتها عنه قبل سقوط التيموريين^(١).

(١) راجع أيضاً... Dimand: A Handbook ص ٤٤ - ٤٦.